خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

١٠

أحسنوا الظن بالله تعالى

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في صحيحِ الإمامِ مُسلم:

عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ:

إنَّهُ سَمعَ النَّبيَّ ﷺ قَبلَ مَوتِهِ بثلاثَةِ أيَّامٍ يَقُولُ:

«لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهَو يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ».

وبعدَ أنْ أدَّتْ (أمُّ الخيرِ) صَلاةَ العِشاءِ، أخذَتِ المُصحَفَ ورَاحتْ تَقرأُ في سُورةِ الزُّمَرِ، وإذا بِها تَمُرُّ عَلى قَولِ اللهِ تَعالَى:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وبِدُونِ شُعورٍ رَاحَتْ تُرَدِّدُهَا مرَّةً تِلو مَرَّةٍ!!

وفي هَذِهِ اللَّحظاتِ دَخلَ زَوجُها (أبو الخيرِ)، وألْقَى عَلَيْها السَّلامَ، ونَظَرَ إلى وَجهِهَا، فَرَأى الدُّموعَ تسيلُ عَلى خَدَّيْها، فَسألَها: ماذَا حَدثَ يَا أُمَّ الخَيرِ؟

هَلْ أصيبَ أَحدٌ منَ الأولاَدِ بمكرُوهٍ؟ هَلْ هَلْ؟! وَألحَّ عَليهَا بالأسئِلةِ...

لكنَّها قَالتْ: لاَ، ولله الحَمدُ لَمْ يحدُثْ أي مَكرُوهٍ.

ولمَّا أقْسَمَ عَليها.. أجَابتْ: لَقدْ كُنتُ أَقرَأُ هَذهِ الآيةَ الكَرِيمةَ.. وإذَا بِي أُرَدِّدُهَا.. وأتَذكَّرُ فَضْلَ اللهِ وكَرمَهُ على عِبَادِهِ.

فابْتَسمَ (أبو الخيرِ) وقالَ: أبْشِرِي يَا أُمَّ الخَيرِ، فإنَّ سببَ نُزُولِ هَذهِ الآيةِ:

أنَّ قَوماً قَالوا: يَا رسولَ اللهِ! هَل يَغفِرُ لَنَا ربُّنَا إنْ أسْلَمْنا ما كُنَّا عَليهِ من كُفرٍ؟

فنَزَلتْ هذِهِ الآيةُ.

يَقولُ أحدُ الصَّحابَةِ الكِرامِ ، وَهُو (ثَوبان) رَضيَ اللهُ عنْهُ: لَمَّا نَزَلَتْ قالَ الرَّسولُ ﷺ: «مَا أُحِبُّ أنَّ لِي الدُّنيا وَما فِيها بِهذِهِ الآيةِ».

ومعناها: أنَّ اللهَ يَغفرُ الذُّنوبَ جَميعاً لِمن تابَ.

وبَينَما (أبو الخيرِ) وزوجتُهُ يتَحادَثَانِ في هذِهِ المسْألةِ ، إذْ دَخَلتْ (روضةُ) تَتبعُها (دَانية) ، ثَمَّ دَخلَ (جميلٌ) وأخُوهُ (صُهيبٌ).. واجتْمعتِ العائِلةُ حَسبَ الموعدِ المُعتادِ..

يَا لروعةِ الظَّنِّ بِاللهِ!!

وبعـدَ تنـاوُلِ العَشـاءِ.. وَقفـتِ الطَّـالبـةُ (دانية) وقالتْ: في هَذا اليومِ سَيكونُ الدَّورُ عليَّ في قِراءةِ واحدٍ من أحَاديثِ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ ورقةً صغيرةً من جَيبِها وقَرأتْ بصوتٍ حَادٍّ وقَوِيٍّ:

قالَ رسولُ اللهِ صلواتُ اللهِ عَليهِ: «لا يَمُوتنَّ أحَدُكُم إلاَّ وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ».

ثُمَّ ابتسمتْ وهِي تنظُرُ إلى والِدِهَا وقالتْ: ولكنْ لا أفهمُ منْ هَذا الحديثِ الشَّريفِ أيَّ شيءٍ!

فَما مَعْنَى حُسنِ الظَّنِّ باللهِ؟!

فبَادَلَها والدُهَا الابتسامةَ ثُمَّ قالَ:

إنَّ حُسنَ الظَّنِّ بِاللهِ هُو أنْ تَظُنَّ أنَّه سيعفُو عنكَ ، ويَرحمُكَ بِواسعِ رَحمتِهِ وأنْتَ عَلى طَاعتِهِ ، وهَذا لا يتَعارضُ معَ حَذَرِكَ إنْ كُنتَ عَاصِياً.

وأمَّا حُسنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ فَهُوَ: أنْ تَظُنَّ أنَّهُم عَلى خَيْرٍ ، وعَلى هَدي من ربِّهم فِيما بينَهُم وبَينه ، بَلْ رُبَّما كَانُوا عندَ اللهِ أحسنَ مِنْكَ.

ولذلكَ اعْتبرَ الرَّسولُ ﷺ مَسألةَ حُسنِ الظَّنِّ من أفضلِ أنواعِ العِباداتِ ، مِصداقُ ذلكَ ما وَردَ في سُننِ أبي دَاودَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «حُسنُ الظَّنِّ من حُسْنِ العبادةِ».

ومَا ورَدَ في المُعجمِ الكَبيرِ للطَّبرانيِّ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:

قالَ رسولُ الله ﷺ: «والَّذي لا إلهَ غيرُهُ، لا يُحسِنُ عبدٌ الظَّنَّ إلاَّ أعطاهُ ظَنَّهُ، وذلكَ بأنَّ الخيرَ في يَدِهِ».

ولكنَّ مُشكلةَ الكَثيرين منَ النَّاسِ: أنَّ اللهَ يمُدُّهُم بِنعمهِ الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحْصَى، ثُمَّ بدَلَ أنْ يشكرَ لَهُ ذلكَ ويَحمدُوه، إذا بِهم يُجاهِرونَ بِالمعاصِي ويَسكرُون بالنِّعمِ، مثالُ ذلكَ: أنَّ اللهَ تَعالَى خلقَ لنَا الأَنهارَ لِنشربَ مِنها، لِنسقيَ أشجارَنَا ودَوابَّنَا.. ثُمَ إنَّ الأنهارَ تُضفِي على الأمكنةِ الجَمالَ والرَّاحةَ النَّفسيَّةَ للإنسانِ.

لَكنْ ماذا يحدثُ عادةً؟!

ولِلأسفِ الشَّديدِ بعضُ النَّاسِ يَذْهبُونَ إلى

مَنابعِ الأنهَارِ وحَوافِّها فَيشربُونَ الخُمورَ، وتَعــزِفُ المعــازِفُ والقَينــاتُ، وتــرقُــصُ الرَّاقِصاتُ و..!!.. ولَكنْ:

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾

يقولُ اللهُ تَعالَى في الحديثِ القُدْسِيِّ الذي رَواهُ الرَّسولُ ﷺ: «إنِّي والجِنُّ والإنسُ في نبأ عظيمٍ: أخلُقُ ويُعبَدُ غَيري، وأَرزُقُ ويُشكَرُ سِوايَ، خيرِي إلى العِبادِ نازلٌ، وشَرُّهم إليَّ صَاعِدٌ، أتقرَّبُ إليهم بِنعَمِي وأنَا الغنيُّ عنهم، وتبَغَّضُون إليَّ بِالمعاصِي وهُم أفقرُ شيءٍ إليَّ، مَنْ أقبلَ إليَّ تَلقيتُهُ من بعيدٍ، ومنْ أعرضَ عنِّي ناديتُه من قريبٍ، فإنِّي أحِبُّ التَّوَّابِينَ وأحِبُّ المتَطَهِّرِينَ.

أهلُ ذِكري أَهلُ مُجالسَتِي، وأهلُ طَاعتِي

أهْلُ مغفِرَتِي ، وأهلُ مَعْصِيتي لا أُقَنِّطُهم مِن رَحمتِي ، فإنْ تَابُوا إليَّ فَأنا حَبيبُهم ، وإنْ أعرَضُوا وأَبَوا فأنا طَبيبُهم ، أبْتليهِم بالمصائبِ لأطَهِّرُهُم منَ المعائِبِ ، الحَسنَةُ عندي بعشْرةِ أمْثالِها ، والسَّيئةُ عِندِي بِواحدةٍ ، ومنِ اسْتغفَرَها غَفَرتُها لَهُ ، وأنَا أرحَمُ بِعبادِي منَ الوَالدةِ عَلى وَلدِها».

وسالتْ دموعُ أبي الخيرِ عَلَى لِحيتِه البَيْضَاء ، ثُمَّ رَاحَ يُردِّدُ معَ النَّغمِ:

يَا ربِّ إنْ عَظُمتْ ذُنُوبي كَثرةً
فلَقدْ عَلمتُ بأنَّ عفْوكَ أَعْظَمُ
إنْ كانَ لا يرجُوكَ إلا مُحسِنٌ
فمنِ الَّذي يَدْعو ويَرْجُو المُجرمُ
أدعُوكَ ربِّ كَما أمرْتَ تضرُّعاً
فلئِنْ ردَدْتَ يَدي فمنَ ذَا يرْحَمُ

ما لِي إليكَ وسيلةٌ إلاَّ الرَّجَا

وجميلُ عفوِكَ ثُمَّ إنِّي مُسلِمُ

ثُمَّ رَفعَ يَديهِ إلى اللهِ وقالَ:

أسألُ اللهَ أنْ يُدْخِلَنا جنَّتَهُ بفضلِهِ وكَرمِهِ...

وأمَّا سُوءُ الظَّنِّ

وقالتْ (روضة): ولكنَّ القُرآنَ الكريمَ أوضَحَ شيئاً آخرَ، وهُو أنَّ منْ صِفاتِ أَعداءِ اللهِ سُوءَ الظَّنِّ باللهِ تَعالى.

وبالتَّالي فَسوءُ الظَّنِّ بِالله يُؤدِّي إلى الهَلاكِ العَاجِلِ، والمصِيرِ السَّيِّىء يومَ القِيامةِ، قالَ اللهُ تَعالَى:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا

تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ ـ ٢٤].

لِذلكَ أكَّدَ القُرآنُ الكرِيمُ مرَّةً أُخرَى عَلَى أنَّ من صِفاتِ المُشرِكينَ والمُنافِقينَ سُوءَ ظَنٍّ بِاللهِ تَعالَى.

والسَّببُ في ذَلك أنَّ قلبَ المؤمِنِ دَائمُ الخَيريَّةِ ، فَهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بِاللهِ ، يتوَقَّعُ مِنهُ الخيرَ دَائماً ، وذَلكَ لأنَّ القلبَ مَوصُولٌ بِاللهِ.

وأمَّا المُنافقُ أو المُشرِكُ ، فَهُوَ مَقْطُوعُ الصِّلةِ باللهِ ، لِذلكَ ففِي كُلِّ حالاَتِهِ يكونُ القلبُ دَائماً في حالةِ سُوءِ الظَّنِّ بِالله ، قَالَ تَعالَى:

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾

[الفتح: ٦].

خَوفٌ.. ورَجاءٌ!!

وقالَ الشَّابُّ الجَامِعيُّ (صُهيب):

وقدْ وُضِعَ أمامَ الإنسانِ طَريقانِ: طَريقُ الخَوفِ مِنَ اللهِ تَعالى، وطَريقُ الرَّجاءِ لِعفوِهِ ورَحمتِهِ سُبحانَه.

فالخَوفُ يُؤدِّي إلى مَزيدٍ مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ، والرَّجاءُ يؤدِّي إلى دفْعِ اليَأسِ والقُنوطِ من رَحمتهِ، وبالتَّالِي يُؤدِّي إلى التَّقوَى والوَرَعِ.

وتَلا (جميلٌ) قولَ اللهِ تَعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

[الفرقان: ٧٠].

ثُمَّ ذَكرَ قولَ رسُولِ اللهِ ﷺ: «إذَا تابَ العبْدُ أنْسَى الحَفَظةَ ذُنُوبَه ، وأنْسَى ذَلكَ جَوارِحَهُ ومعَالِمَهُ منَ الأرضِ؛ حتَّى يلْقَى اللهَ وليسَ عَليهِ شاهدٌ بِذنبٍ».

وقالتْ (أُمُّ الخيرِ): أحسنتَ يا صُهيبُ ، فَفِكرةُ الخوفِ والرَّجَاءِ في حياةِ المُؤمنِ ، فِكرةٌ رَائعةٌ فِعلاً ، لِذلكَ جَاءَ في صَحيحِ مُسْلمٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ:

«لَوْ يعلمُ المُؤمنُ ما عِندَ اللهِ منَ العُقوبةِ ما طَمعَ بجنَّتِهِ أحدٌ، ولَو يعلَمُ الكافِرُ ما عِندَ اللهِ منَ الرَّحمةِ ما قَنطَ من جنَّتِهِ أحَدٌ».

وخَتَمَ (أبو الخيرِ) الجلسَةَ بقولِهِ: لِذلكَ فَكُلُّ

شيءٍ واضحٌ تمَاماً ، كَما قالَ الرَّسولُ ﷺ:

«ألاَ وإنَّ الدُّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ ، يأكُلُ مِنهَا البَرُّ والفَاجِرُ ، ألاَ وإنَّ الآخرةَ وعدٌ صادِقٌ ، يقضِي فِيها ملكٌ قادِرٌ ، أَلا وإنَّ الخيرَ كُلَّهُ بِحذافِيرِهِ في الجنَّةِ ، ألاَ وإنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحذَافِيرِه في النَّارِ ، واعمَلُوا وأنْتُمْ مِنَ اللهِ عَلى حَذَرٍ ، واعْلَمُوا أنَّكمُ مَعْرُوضُونَ على أعمَالِكُم وأنَّكنُ مُلاقُو اللهَ ربَّكُم ولاَ بُدَّ:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وآخرُ دَعْوانَا أن الحَمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ